Journal of Alasmarya University
Volume 13, June 2010

مجلة الجامعة الأسمرية
المجلد الثالث عشر، يونيو 2010

التغني بالقرآن

تحليل وأحكام

د. رجب محمد غيث*

مقدمة

الحمد لله الذي له ما في السماوات وما في الأرض، وله الحمد في الأولى والآخرة، وهو على كل شيء قدير، سبحانه وتعالى لا أحصى ثناء عليه هو كما أثنى على نفسه. والصلاة والسلام على خير خلق الله المبعوث رحمة للعالمين سيدنا محمد صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين. وبعد.

فإن علم قراءة القرآن الكريم يعد من أجل وأقدم العلوم الإسلامية نشأة وعهدا، وأعظمها قدرا ونفعا، وأشرفها منزلة وشأنا، لأن أول ما تعلمه الصحابة -رضوان الله عليهم- من علوم كان حفظ القرآن الكريم وقراءته وترتيله، ولهذا كان من بين العلوم الأولى التي شغلت الصدارة عند المسلمين علم قراءة القرآن الكريم، ذلك لأن الكتاب أنزل مقرونا بالقراءة، واسمه نفسه مصدر يدل على القراءة، وكان ذلك وحده حقيقا أن يدفع المسلمين إلى إنشاء علم القراءة، وهو أهم علم عند المسلمين من حيث الدقة والضبط والوثاقة، لأن المنهج في القراءة نهض على ركنين مجتمعين، التلقي عن الشيخ، والعرض عليه، فلا تصح القراءة إلا بعد تحقق الركنين، لان القراءة أداء، والأداء لا يثبت بالعقل بل بالنقل عن الشيخ، ثم بمراقبة الشيخ لصحة هذا النقل، وفى القراءات القرآنية

* جامعة المرقب.

عناصر كثيرة، كل عنصر فيها يقتضى زمنا ممتدا ليتقنه المتلقي، ولهذا فالذين يتخصصون في القراءات القرآنية يكرسون حياتهم كلها لها.

على أن التغني بالقرآن الكريم يمثل عنصرا منفردا لما له من آثار هائلة في غير جانب من جوانب القراءة. ومن سنن المصطفى ﷺ وهو سيد القراء (التغني بالقرآن) فقد تبين من طرق كثيرة أن النبي ﷺ كان يتغنى بالقرآن ويترنم به، وما سمع أحسن من صوته بالقرآن، وفي الصحيحين عن جبير بن مطعم قال: سمعت رسول الله ﷺ يقرأ في المغرب بالطور، فما سمعت أحدا أحسن صوتا أو قراءة منه. وفى رواية: فلما سمعته قرأ: ﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴾ [الطور: 35] خلت أن فؤادي قد انصدع. (البخاري كتاب التفسير).

وإذا علمنا أن جبير بن مطعم قد شهد هذه الشهادة وهو مشرك، أيقنا أن القراءة الحسنة تؤثر في السامع، فهذا جبير -كما يروي- أثرت فيه قراءة النبي ﷺ بحسن صوته وترتيله وترنمه، ومع عظيم المعاني التي فهمها جبير بسليقته اللغوية.

وقد ورد من فعل النبي ﷺ ما يدل على مشروعية الترنم، وتحسين الصوت بالقرآن، بل الحث بلفظ صريح على التغني به، ففي الصحيحين عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ «ليس منا من لم يتغن بالقرآن يجهر به» (البخاري كتاب التوحيد).

وعندما نتحدث عن التغني بالقرآن الكريم لا نقصد بذلك أن يقرأ بالنهاوند، والسيكا، والحجاز، وغيرها من المقامات التي تستخدم في الغناء المطرب، وإنما نقصد بذلك أحكامه التي نزل بها، فللقرآن موسيقاه الخاصة التي لا يفوت إدراكها أحد من قرائه.

التحبير والتغني

إن تجويد القراءة واجب على كل من يريد أن يقرأ شيئا من القرآن الكريم، يثاب علي فعله، ويأثم علي تركه، لأنه هكذا نزل علي رسول الله ﷺ مجوداً مرتلاً منغماً، ووصل إلينا كذلك، نقلاً عن الصحابة والتابعين وتابعيهم إلي يومنا هذا، وإذا كان فهم معاني القرآن وإقامة حدوده والعمل به عبادة فإن تصحيح ألفاظه وإقامة حروفه علي الصفة المتلقاة من أئمة القراءة نقلاً عن الصحابة عن رسول الله ﷺ عن جبريل -عليه السلام- عن رب العزة سبحانه وتعالى عبادة أيضا.

والأصل في ذلك قوله تعالى في كتابه العزيز آمرا نبيه بترتيل القرآن الكريم: ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾ [المزمل: 4] أي تلبث في قراءته وافصل الحرف من الحرف الذي بعده ولا تتعجل فتدخل بعض الحروف في بعض[1]، وقوله تعالى: ﴿وَرَتَّلْنَٰهُ﴾ [الفرقان: 32] أي: أنزلناه علي الترسل ضد العجلة[2]. وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ﴾ [الإسراء: 106] فقد ورد عن مجاهد في تفسير هذه الآية قوله: ﴿لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ﴾ أي على تؤدة.

وعن حذيفة بن اليمان ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «اقرؤوا القرآن بلحون العرب وأصواتها، وإياكم ولحون أهل الفسق ولحون أهل الكتابيين فإنه سيجئ أقوام من بعدي يرجعون بالقرآن ترجيع الغناء والرهبانية والنوح، لا يتجاوز حناجرهم مفتونة قلوبهم وقلوب من يعجبهم شأنهم»[3].

ففي هذا الحديث يعلم النبي ﷺ أصحابه قراءة القرآن بلحون العرب وعاداتها في التنغيم وينهاهم عن قراءته باللحون التي يستخدمها أهل الفسق والكبائر. فقوله: اقرؤوا القرآن بلحون العرب وأصواتها أي تطريبها وترنماتها الحسنة التي لا يختل معها شي من الحروف عن مخرجه لأن القرآن لما اشتمل عليه من حسن النظم، والتأليف، والأسلوب البليغ اللطيف، يورث نشاطا للقارئ، وتلين إليه القلوب القاسية، ويكشف عن البصائر الغشاوة الحاجبة.

وقوله: «وإياكم ولحون أهل الفسق والكتابيين ...» أي احذروا لحون اليهود والنصارى وأهل الفسق من المسلمين الذين، يخرجون القرآن عن موضعه بالتمطيط بحيث يزاد حرف أو ينقص حرف، فانه حرام إجماعا كما ذكر النووي في تبيانه[4].

وقد دل على التغني في عصر النبي ﷺ وأصحابه مصطلحات أخري غير هذا المصطلح مثل التجويد، والترتيل، والتحسين، والتزيين، والتحبير والترجيع. وهذه المصطلحات تستخدم في وصف القراءة إذا جمعت مرتبتين في النطق الأولي: الإعراب في الكلام، ونعني بذلك تبيينه وإظهاره في نطقه العربي الفصيح. والثانية: الزينة في الأداء

1- التجويد في الإتقان والتسديد لأبي عمر و الداني ص171.
2- المرجع السابق ص172.
3- أوردة الهيتمي في الزوائد 169/7، وقال رواه الطبراني في الأواسط.
4- التبيان للنووي ص55.

باستخدام قواعد التزيين الصوتية العربية.

ولم يرد من هذه المصطلحات السبع في القرآن الكريم سوي مصطلح الترتيل[5]، والبقية وردت في السنة النبوية المطهرة، فقد كانت هذه الأصول هي المكونة لعلم التجويد التطبيقي، أي (التغني بالقراءة) ومرجع ذلك إلي أمرين أساسين، يشكلان الأصلين الشرعيين لعلم التجويد (التغني بالقراءة) في صورته التامة. النصوص الشرعية، وقواعد اللغة العربية من حيث كون اللسان الذي نزل به القرآن عربيا، ومن حيث رجوع تلك القواعد إلى ما اختاره النقل الشرعي منها، أو إن شئت فقل: أخذت مادة علم التجويد الوضعي والتطبيقي من علمين: علم القراءة (المشافهة) وعلم اللغة العربية.

وأهل العلم يعرفون أن للقرآن موسيقاه الخاصة التي لا يفوت إدراكها أحدا من قرائه، ومن أنواع بدائعه ما يمكن أن نري فيه -ضمنا- دلائل موسيقية نابعة منه، وليست مستجلبة إليه. انظر إليه وهو يأتي بمعان شتى من المدح والوصف وغير ذلك من الفنون، كل جملة منفصلة عن أخت، مع تساوي الجمل في الرنة، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهۡدِينِ ۝٧٨ وَٱلَّذِى هُوَ يُطۡعِمُنِى وَيَسۡقِينِ ۝٧٩ وَإِذَا مَرِضۡتُ فَهُوَ يَشۡفِينِ ۝٨٠ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ ﴾ [الشعراء: 78-81]، واستمع إلى إيقاع الألفاظ المفردة علي سياق واحد، قال تعالى: ﴿مُسۡلِمَٰتٖ مُّؤۡمِنَٰتٖ قَٰنِتَٰتٖ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٖ سَٰٓئِحَٰتٖ ثَيِّبَٰتٖ وَأَبۡكَارًا﴾ [التحريم: 5] وقوله تعالى: ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلۡعَٰبِدُونَ ٱلۡحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ﴾ [التوبة: 112]. وانظر إليه وهو يذكر الشيء بلفظ غيره لوقوعه في صحبته، قال تعالى: ﴿تَعۡلَمُ مَا فِى نَفۡسِى أَعۡلَمُ مَا فِى نَفۡسِكَ ﴾ [المائدة: 116].

ومما يوفر للقرآن موسيقاه الذاتية أنه هو نفسه يوفر الانسجام بين ألفاظه وأصواته من طرق كثيرة أخرى مثل حذف ياء المنقوص، كقوله تعالى: ﴿ٱلۡكَبِيرُ ﴾ [الرعد: 9]، و مثل حذف ياء الفعل غير المجزوم، كقوله تعالى: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَسۡرِ﴾ [الفجر: 4].

ومثل حذف ياء الإضافة كقوله تعالى: ﴿فَكَيۡفَ كَانَ عَذَابِى ﴾ [القمر: 16] ومثل إبقاء حرف المد مع الجازم، كقوله تعالى: ﴿لَّا تَخَفۡ دَرَكٗا وَلَا تَخۡشَىٰ ﴾ [طه: 77]. ومثل صرف مالا ينصرف، كقوله تعالى: ﴿ ۝١٥ قَوَارِيرَاْ﴾ [الإنسان: 15-16]، ومثل الاستغناء بالإفراد عن التثنية، كقوله تعالى: ﴿فَلَا يُخۡرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلۡجَنَّةِ فَتَشۡقَىٰٓ ﴾ [طه: 117]. ومثل العدول عن صيغة الماضي إلي صيغة الاستقبال، كقوله تعالى: ﴿فَفَرِيقٗا كَذَّبۡتُمۡ وَفَرِيقٗا

5- كما في قوله تعالى: ﴿وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا﴾ [المزمل: 4]، وقوله: ﴿وَرَتَّلۡنَٰهُ ﴾ [الفرقان: 32].

﴾ [البقرة: 87] لأن الأصل قتلتم.

ومما يوفر للقرآن موسيقاه الذاتية أيضا ما ورد فيه من كثرة ختم الفواصل بحروف المد واللين وإلحاق النون، يقول السيوطي (ت911 هـ): وحكمة وجود التمكن من التطريب بذلك، كما قال سيبويه: إنهم إذا ترنموا، يلحقون الألف والياء والنون، لأنهم أرادوا مد الصوت ويتركون ذلك إذا لم يترنموا وجاء القرآن علي أسهل موقف، وأعذب مقطع[6].

والموسيقى في عبارات القرآن تساير المعاني، فهو (بالإطلاق) في التقريع، والإعذار، والإنذار، والتخدير، والتخويف، ... ذو ألفاظ شديدة قابضة مزعجة، فإذا بشر، ووعد وحمد، فألفاظه -بالإطلاق أيضا- باسطة بهيجة مشوقة.

وقد قيل: إن هذه الموسيقية في الأصوات القرآنية، تلعب في تكييف عقل السامع، وتهيئته لتلقي الدعوة دورا هو فوق التعريف، وإن الجمال الفني في القرآن هو رأس ما جذب العرب إلي الإسلام[7]. ويقول لبيب السعيد: «وعندنا أن الموسيقية في القرآن أوضح من أن تجحد، وعدنا أيضا أنه ليس يمس قداسة القرآن وعظمته أن نقول: إنه تحري الموسيقية، فذلك -في الواقع- من دلائل إعجازه، سيما أن موسيقاه غير الموسيقي فيما يكتب البشر من نثر فني قد يعمد إليه بعضهم، فيضحي من أجله -قليلا أو كثيرا- بدقة المعنى المراد»[8].

معنى التغني في اللغة

قال ابن منظور (ت711هـ): غنّى به يغنّه غنية، وأغناه الله، وقد غنى واستغنى، واغتنى وتغاني[9] والغناء من الصوت ما طرب به. يقال: غنى فلان يغني أغنية، وتغنى بأغنية حسنة. وغنى بالمرأة، تغزل بها. وغنى الحمام، وتغنى: صوت[10]. وتغان القوم: استغنى بعضهم عن بعض.

6- الإتقان للسيوطي 105/2.

7- البرهان للزركشي 68/1.

8- الجمع الصوتي الأول ص 333.

9- لسان العرب: مادة (غنى).

10- المرجع السابق والمادة نفسها.

ومنه قول الشاعر:

كلانـــا غنـــى عـــن أخيـــه حياتـــه ونحـــن إذا متنـــا أشـــد تغانيـــا[11]

والغانية من النساء: التي غنيت بزوجها، أي استغنت به، واستغنى هو بها. ومن ذلك قول جميل بثينة:

أحـــب الأيـــامى إذ بثينـــة أيـــم وأحببت لما أن غنيت الغوانيا[12]

وقال الأصفهاني: التغني يراد به الاستغناء، لأنا وجدنا من قرأ القرآن بغير تحسين منه لصوته، مثابا عليه غير مذموم، فعلمنا أنه يراد به الاستغناء. وقال أبو العباس: ويقال: إن الغناء إنما سمي غناء، لأنه يستغني به صاحبه عن كثير من الأحاديث، ويفر إليه منها، ويؤثره عليها[13]. وقيل: إن العرب كانت تتغنى بالركباني[14] إذا ركبت الإبل، وإذا حلت في الأفنية، وعلى أكثر أحوالها، فلما نزل القرآن أحب النبي ﷺ أن يكون هجيراهم[15] القرآن مكان التغني بالركباني. وقال الأصمعي: الغنى من المال مقصور، ومن السماع ممدود، وكل من رفع صوته ووالاه فصوته عند العرب غناء[16].

فالغناء عند العرب هو المردد المرجع من الكلام لا شأن له بالآلات، وقد جاء في حديث عائشة رضي الله عنها « ... وعندي جاريتان تغنيان بغناء بعاث»، أي تنشدان الأشعار التي قيلت يوم بعاث، ولم ترد الغناء المعروف بين أهل اللهو واللعب، وقد رخص عمر رضي الله عنه في غناء الأعراب[17]، وهو صوت كالحداء.

وقد اختلفت الأقوال والآراء حول دلالة (التغني بالقرآن) الواردة في الأحاديث الشريفة على قولين مشهورين:

11- البيت للمغيرة بن حبناء التميمي. وأورده صاحب لسان العرب 136/15 وينظر الكامل للمبرد 13/2.

12- البيت أورده صاحب لسان العرب 138/15.

13- ابن سيده: المخصص 9/12، باب الملاحن والغناء.

14- الركباني: نشيد تتغنى به العرب بالتمطيط والمد مع رفع الصوت يعني ليس منا من لم يضع القرآن موضع الركباني في اللهج به والطرب عليه.

15- هجّراه: بكسر الهاء، والجيم المشددة، الدأب والعادة.

16- لسان العرب 136/15 مادة (غنى).

17- المرجع السابق 137/15.

الأول: يرى أن معنى التغني الاستغناء وحدوث الكفاية به، وقد ذهب إلى هذا الإمام البخاري، وسفيان بن عيينة، وأبو عبيد القاسم بن سلام، حتى أن البخاري جعل له باباً في الصحيح فقال: «باب من لم يتغن بالقرآن».

الثاني: يرى أن التغني معناه التطريب به والحداء، وتحزين القراءة وترقيقها، وقد ذهب إلى هذا الإمام أبو حنيفة، والشافعي، وابن المبارك، وهو اختيار أبي جعفر الطبري، وأبي بكر بن العربي وغيرهم.

أولاً: إطلاق مدلول (التغني) على الاستغناء

الأصل في هذه المسألة ما ورد في الصحيحين عن أبي هريرة (ت 57 هـ) رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «ليس منا من لم يتغن بالقرآن»[18]. ووجه الاستدلال لهذا الحديث قوله: «يتغن» فقد فسر بالاستغناء وحدوث الكفاية به.

يقول سفيان بن عيينة (ت 198 هـ): في تفسير هذا الحديث، إنما يدل على الاستغناء بالقرآن عما سواه. وقال وكيع (ت 197 هـ): يستغني به عن غيره من الكتب السابقة، من تغنيت تغنيا، بمعنى استغنيت[19]. ونقل ابن راهويه عن ابن عيينة، أن مراده ذلك وليس الاستغناء الذي هو ضد الفقر[20]. وكان أبو عبيد القاسم بن سلام (ت 224 هـ) يرى مثل رأي سفيان بن عيينة، وقال: ليس للحديث عندي وجه غير هذا، واحتج له من كلام العرب بقول المغيرة بن حبناء التميمي[21].

كلانا غني عن أخيه حياته ونحن إذا متنا أشد تغانيا[22]

ويقول الأعشى:

وكنت امرءا زمنا بالعراق عفيف المناخ طويل التغن[23]

18- البخاري مع الفتح 84/9 باب من لم يتغن بالقرآن. والسنن الكبرى للبيهقي 54/2.

19- المرجع السابق نفس الجزء والصفحة.

20- المرجع السابق.

21- انظر ترجمته في الشعر والشعراء لابن قتيبة 406/1.

22- الكامل في اللغة والأدب للمبرد 13/2 والبيت أورده صاحب لسان العرب 136/15.

23- ديوان الأعشى، ص: 25.

وقد احتج هذا الفريق بأقوال أخرى منسوبة إلى ابن مسعود، وإلى النبي ﷺ. يقول ابن مسعود: «من قرأ سورة آل عمران فهو غني»[24].

ولعل ابن مسعود اقتبس قوله هذا: من قول النبي ﷺ لأهل الصفة: كما رواه عقبة بن عامر أنه ﷺ قال: «أيكم يحب أن يغدو كل يوم إلى بطحان، أو إلى العقيق فيأتي منه بناقتين كوماوين في غير إثم ولا قطع رحم؟. قلنا يا رسول الله: نحب ذلك، قال: «أفلا يغدو أحدكم إلى المسجد فيعلم أو يقرأ آيتين من كتاب الله ﷻ خير له من ناقتين، وثلاث خير له من ثلاث، وأربع خير له من أربع، ومن أعدادهن من الإبل»[25].

ولعل استقصائنا عن سبب ورود الحديث يظهر لنا بجلاء المعنى المراد، وذلك أن عبد الله بن نهيك[26] دخل على سعد بن أبي وقاص، وعنده متاع رث[27]، ومآل رث، فقال: قال رسول الله ﷺ: «ليس منا من لم يتغن بالقرآن».

قال أبوعبيد: فذكره رثاثة المتاع، والمآل عند الحديث ينبيك أنه إنما أراد الاستغناء بالمال القليل، وليس الصوت من هذا في شيء، ولو كان معناه الترجيع لعظمت المحنة علينا بذلك، إذ كان من لم يرجع القرآن فليس من النبي ﷺ، أي ليس على طريقته[28].

ويؤيد هذا التفسير ما رواه ابن أبي مليكة (ت117هـ) قال: لقيني سعد بن أبي وقاص وأنا في السوق، فقال: تجار كسبة، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ليس منا من لم يتغن بالقرآن»[29].

ويمكن الإجابة عن استدلال هذا الفريق بالآتي:

أ. ما ورد عن عبد الرحمن بن السائب قال: «قدم علينا سعد بن أبى وقاص -وقد كف بصره- فسلمت عليه، فقال: من أنت؟ فأخبرته، فقال: مرحبا بابن أخي، بلغني أنك

24- أورده أبو عبيد في فضائل القرآن ص 238.
25- رواه مسلم في صلاة المسافرين 55/2.
26- ويقال عبد الله بن أبي نهيك.
27- رث: أي بال. 4
28- الكامل للمبرد 13/2.
29- سبق تخريجه. وانظر سنن أبي داود حديث رقم 1469. مسند الإمام احمد حديث رقم 1476.

حسن الصوت بالقرآن، سمعت رسول الله ﷺ يقول: إن هذا القرآن نزل بحزن فإذا قرأتموه فابكوا فإن لم تبكوا فتباكوا، وتغنوا به فمن لم يتغن به فليس منا »[30].

ب. ما ورد عن عبدالله بن أبي نهيك عن سعد بن أبي وقاص قال: أتيته فسألني من أنت؟ فأخبرته عن نفسي، فقال سعد: تجار كسبه، سمعت رسول الله ﷺ يقول: « ليس منا من لم يتغن بالقرآن » فقيل لأبي مليكة: يا أبا محمد! أرأيت إذا لم يكن حسن الصوت؟ قال: يحسنه ما استطاع[31].

ج. لقد اعتنى قراء القرآن الكريم في القديم والحديث بتحسين القراءة وتزيينها وفقا لما حباهم الله به من جمال الصوت، امتثالا لقول الرسول ﷺ: « زينوا القرآن بأصواتكم »[32].

فمنذ القدم سمع أصحاب رسول الله ﷺ هذا الحديث الذي فيه حث على الترتيل وتحسين الصوت بالقراءة، وفيه التنبيه على التحرز من اللحن والتصحيف، فإذا قرئ القرآن كذلك كان أوقع في القلوب، وأشد تأثيرا في النفوس، وأرق لسامعيه، وسماه تزيينا لأنه تزيين للفظ والمعنى.

لقد فهم الصحابة هذا الحديث فزينوا أصواتهم بالقرآن، ونهجوا بقراءته، واتخذوه شعارا وزينة لأصواتهم، فبحسن الصوت وجودة الأداء تهفو القلوب لاستماعه وتدبره والإصغاء إليه. يقول الزهري في تفسير قوله تعالى: ﴿يَزِيدُ فِي مَا يَشَاءُ﴾ [فاطر: 1] يعني الصوت الحسن[33].

د. تدل الروايات المتعددة أن رسول الله ﷺ استمع إلى قراءة أبي موسى الأشعري أكثر من مرة، وشهد له بالإيمان وحسن القراءة. فعن بريدة بن الحصيب قال: « خرجت ليلة من المسجد، فإذا النبي ﷺ عند باب المسجد قائم، وإذا رجل يصلي، فقال لي: يا بريدة أتراه يرائي؟ قلت الله ورسوله أعلم. قال: بل هو مؤمن منيب، لقد أعطي مزمارا

30- سنن بن ماجه 424/1.

31- السنن الكبرى للبيهقي 54/2 باب كيف قراءة المصلي.

32- أبو داود 74/2.

33- الجامع لأحكام القرآن للقرطبي 230/14.

من مزامير آل داوود[34]، فأتيته فإذا هو أبو موسى، فأخبرته».

ه. وأنكر الشافعي (ت204هـ) تأويل ابن عيينة، فقد روى أنه سئل عن تأويل ابن عيينة (التغني بالاستغناء) فلم يرتضه، وقال: لو أراد الاستغناء لقال: «لم يستغن بالقرآن» فلما قال: ليس منا من لم يتغن بالقرآن علمنا أنه التغني به أي أنه أراد تحسين الصوت، يتحزّن ويترنّم به[35].

كما أن سياق الحديث يأبى تفسير ابن عيينة، فإنه ورد في معرض القراءة، ووصف فيه النبي ﷺ بحسن الصوت، وذكر فيه استماع الله له، وجاء بعده في بعض الروايات ذكر الجهر بالقرآن[36]. وإذا كان الأمر كذلك فما شأن هذا بالمعنى الذي ذكره ابن عيينة؟

و. وقال الطبري (ت310هـ) في معرض رده على رأي ابن عيينة: وهذا الحديث من أبين البيان، أن ذلك كما قلنا: ولو كان كما قال ابن عيينة: يعني يستغني به عن غيره، لم يكن لذكر حسن الصوت، والجهر به معنى، والمعروف عندنا من كلام العرب أن التغني إنما هو الغناء الذي هو حسن الصوت بالترجيع.

قال الشاعر:

تغن بالشعر أما كنت قائله إن الغناء بهذا الشعر مضمار[37]

فالترنم عندهم لا يكون إلا بالصوت إذا حسنه المترنم وطرب به[38].

ويضيف قائلا: فإن وُجه بوجه التغني بالقرآن إلى هذا المعنى على بعده من مفهوم كلام العرب، كانت المصيبة في خطئه في ذلك أعظم، لأنه يوجب من تأويله أن يكون الله تعالى ذكره لم يأذن لنبيه أن يستغني بالقرآن، وإنما أذن لهم أن يظهر من نفسه

34- أخرجه مسلم في صلاة المسافرين 546/1.

35- ابن السكين: طبقات الشافعية 130/2. فضائل القرآن لابن كثير 73 تحقيق زهير شفيق.

36- جاء في صحيح مسلم من طريق الأوزاعي «ما أذن الله لشيء كإذنه لنبي يتغنى بالقرآن يجهر به» صحيح مسلم 192/2.

37- البيت لحسان بن ثابت ينظر ديوانه ص 42.

38- زاد المعاد في هدي خير العباد لابن قيم الجوزية 191/1. مؤسسة الرسالة، بيروت.

لنفسه خلاف ما هو به من الحال، وهذا لا يخفى فساده[39].

هذا إذا كان مقصود ابن عيينة الاستغناء الذي هو ضد الفقر، كما قرره بعض الأئمة، أما إذا كان المراد -كما قرره آخرون- الاستغناء به عن غيره من كتب السابقين، وأخبارهم، فهذا له وجهه.

ثانياً: إطلاق مدلول (التغني) على تحسين الصوت، والقراءة بالألحان والطبقات الصوتية المختلفة

وأصل هذه المسألة ما رواه الإمام مسلم (ت261هـ) عن أبي هريرة (ت57هـ) أن النبي ﷺ قال: «ما أذن الله لشيء كإذنه لنبي حسن الصوت يترنم بالقرآن»[40]. وجاء في رواية البخاري: «لم يأذن الله لشيء ما أذن لنبي يتغنى بالقرآن يجهر به»[41]. وأذن بكسر الذال المعجمة -أذنا- بفتحتين، بمعنى استمع[42]، يقال: أذنت لشيء، آذن، أذنا إذا سمعت له. قال تعالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ۝١ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ﴾ [الانشقاق: 1-2]. أي استمعت لربها، وحق لها أن تستمع لأمره، وتطيعه.

وقال الشاعر:

صم إذا سمعوا خيرا ذكرت به وإن ذكرت بسوء عندهم أذنوا[43]

ووجه الدلالة في الحديث الشريف أن قوله (يأذن) معناه الاستماع، أي أن الله تعالى ما استمع لشيء كاستماعه لقراءة نبي يجهر بقراءته، ويتغنى بها، وذلك أنه يجتمع في قراءة الأنبياء طيب الصوت لكمال خلقهم وتمام الخشية، وهو الغاية في ذلك.

وهو سبحانه وتعالى يسمع أصوات العباد كلهم، برهم وفاجرهم، ولكن استماعه لقراءة عباده المؤمنين أعظم، كما قال تعالى: ﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا

39- زاد المعاد في هدي خير العباد 191/1 مصدر سابق.

40- صحيح مسلم 192/2.

41- رواه البخاري في فضائل القرآن برقم 5023.

42- شرح النووي على صحيح مسلم 78/6.

43- الشريف المرتضى: غرر الفوائد ودرر القلائد 31. نقلا عن لبيب السعيد التغني بالقرآن ص 23، وانظر الكامل للمبرد13/2.

تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ ﴾ [يونس: 61].

وقد تعددت التأويلات والأقوال في معنى التطريب والتغني بالقرآن، فقيل: اكتساب القراءات وتزيينها بأصواتنا، وتأويل القرآن بالقراءة، أي زينوا القراءة بأصواتكم. وقيل: التحزين والخشوع. وقيل: الترجيع بالقراءة، والتغني بما شاء من الأصوات واللحون، حتى أن البعض حمله على الغناء فاستباحه. وقيل: التلذذ به، كما يستلذ أهل الطرب بالغناء.

والحق أن التغني بالألحان المحدثة، والأنغام والطبوع الموزونة، لا يجرأ أحد من المسلمين -المعتدلين- على استباحته في تلاوة القرآن، فما كان من التغني طبيعيا وسجيا كان محمودا، وما كان منه بالتكلف والألحان المحدثة فهذا هو الذي رفضه السلف والخلف.

وما دمنا في هذا الصدد فلابدّ من التأكيد على الفرق الشاسع بين الغناء وترجيع الصوت من جهة، وبين تحسين الصوت وتقطيع التلاوة وترتيلها من جهة أخرى. فيستحب تحسين الصوت بالقراءة، وترتيلها، ما لم يخرج عن حد القراءة بالتمطيط، فإن أفرط حتى زاد حرفا أو أخفاه فهو حرام.

نقل الإمام النووي (ت677هـ) عن الماوردي قوله: «القراءة بالألحان الموضوعة إن أخرجت لفظ القرآن عن صيغته بإدخال حركات فيه، أو إخراج حركات منه، أو قصر ممدود، أو مد مقصور، أو تمطيط يخفى به بعض اللفظ، ويلتبس المعنى، فهو حرام يفسق به القارئ، ويأثم به المستمع، لأنه عدل به عن نهجه القويم، إلى الاعوجاج، والله تعالى يقول: ﴿ قُرْءَانًا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ ﴾ [الزمر: 28].

وإن لم يخرجه اللحن عن لفظه وقراءته على ترتيبه كان مباحا، لأنه زاد على ألحانه في تحسينه»[44]. وجاء في التبيان: «وأما القراءة بالألحان فقد قال الشافعي رحمه الله في موضع أكرهها. وقال في موضع: لا أكرهها. قال أصحابنا: ليست على قولين، بل فيه تفصيل، إن أفرط في التمطيط فجاوز الحد فهو الذي كرهه، وإن لم يجاوز فهو الذي لم يكرهه»[45].

44- التبيان للنووي 55.

45- النووي: المرجع السابق: 56.

وإذا كان من شروط التنغيم والتلحين ألا يتعارض مع وقار القرآن وجلاله، والخشوع والأدب معه، فإن بعض الألحان لا يليق بالقرآن، وهي التي يكون فيها تطريب لا يبعث على الخشوع و الخشية والتذكر. فعن أم المؤمنين عائشة ﵂، أن النبي ﷺ سئل: «أي الناس أحسن صوتا بالقرآن؟ فقال: إن أحسن الناس قراءة الذي إذا قرأ رأيت أنه يخشى الله تعالى»[46]. وفي رواية سئل أي الناس أحسن قراءة؟ فقال: «الذي إذا سمعته رأيته يخشى الله عز وجل»[47].

وقال طاووس (ت 103هـ): أقرأ الناس للقرآن أخشاهم لله. وقال ابن رجب الحنبلي (ت795هـ): «قراءة القرآن بالألحان بأصوات الغناء وأوزانه، وإيقاعاته، على طريقة أصحاب الموسيقي، أنكر ذلك أكثر أهل العلم، ومنهم من حكاه إجماعا، ولم يثبت فيه نزاعا، كأبي عبيد وغيره، من الأئمة، وفي الحقيقة هذه الألحان المبتدعة المطربة تهيّج الطباع، وتلهي عن تدبر ما يحصل له الاستماع، حتى يصير الالتذاذ بمجرد سماع النغمات الموزونة، والأصوات المطربة، وذلك يمنع المقصود من معاني القرآن»[48].

فلا يسوغ أن يقرأ القرآن بألحان الغناء، ولا أن يقرن به من الألحان ما يقرن بالغناء من آلات وغيرها، لا عند من يقول بإباحة ذلك، ولا عند من يحرمه، بل المسلمون متفقون على الإنكار، لأن يقرن بتحسين الصوت بالقرآن الآلات المطربة، بالفم، واليد، وغيرها. يشهد لذلك أنه عندما ظهرت طائفة مأجورة، ونادت -من خلال تقديم مشروع- بتلحين القرآن تلحينا موسيقيا، وجدت من يتصدى لها، بقوة وحزم، ينكر عليها عملها، ويبطل مشروعها الرخيص.

وما حدث بالأمس يمكن أن يحدث اليوم، كما يمكن حدوثه غدا، أو بعد غد، ومما حدث بالأمس القريب، على سبيل المثال لا الحصر:

أولاً: نشرت مجلة الأدب والفن[49] مقالا بعنوان (القرآن والفنون) قالت في تقديمه: إن فيه من اللمحات الفنية ما أوجب عليها أن تضعه بين يدي مثقفي قرائها، وتضمّن المقال:

46- سنن الدارمي 345/2 باب التغني بالقرآن.

47- فضائل القرآن لأبي عبيد القاسم بن سلام ص 165.

48- نزهة الأسماع في مسألة السماع 84. وراجع الذيل على طبقات الحنابلة 41/1.

49- مجلة تعنى بالأدب والفن كان يصدرها المرحوم الأستاذ أمين الخولي. عدد مايو 1956 م، نقلا عن: لبيب السعيد، الجمع الصوتي الأول، ص: 339.

أ. إن حق تلحين القرآن مقطوع به، وأنه يستمد شرعيته ووجوده من هذه القراءات السبع « وأننا في حاجة فقط إلى فنان عربي عظيم مثل باخ[50] وهندل[51]، وهايدين[52]، في أعمالهم الدينية الرائعة.

ب. وأن خير موسيقى لتلحين القرآن هي موسيقى الكنيسة المصرية، التي نجدها في القداس القبطي القديم، وأن الآذان الإسلامي -الحالي- فيه جزء واضح من هذا القداس القبطي.

ج. وأنه يقترح لتلحين القرآن (آلات موسيقية أساسية، هي -بصفة مبدئية- الناي، والمثلث، والأرغن) ويميل صاحب الاقتراح إلى إبعاد (الطبلة).

د. وأن القرآن سيمفونية ضخمة من حركات كثيرة، وأقرب السيمفونيات إلى هذه السيمفونية الإلهية (السيمفونية التاسعة) التي تنتهي إلى نشيد الفرح، يردده كل الناس ».

ويعقب (لبيب السعيد) على ذلك الكاتب فيقول[53]:

1. إن الذين عرفوا شيئا -ولو يسيرا- عن القراءات يدركون بُعد ما بين القراءات السبع وبين ما أسماه ذلك الكاتب، (مشروعية) التلحين الموسيقى للقرآن.
2. اختيار الكاتب للموسيقى الكنسية المستعملة في القداس القبطي، لتكون مصدرا لتلحين القرآن موسيقيا، وادعائه بأن الأذان الإسلامي مأخوذ من هذا القداس بشكل واضح، والادعاء بأن تلاوة القرآن وقراءة القداس سواء ... كل هذا وغيره ترويج لدعاوي بعض المستشرقين المسيحيين، الذين يعزون -في تعصب- كل المظاهر والشعائر الإسلامية إلى أصول مسيحية.

ثانياً: ما نشرته صحيفة الأهرام[54] بعنوان « خمس سور من القرآن تم تلحينها » ونصه: « أرسل وكيل وزارة التربية والتعليم، إلى صالح أمين، مفتش الموسيقى بالوزارة، الذي بدأ

50- موسيقي ألماني، توفي 1850.

51- موسيقي ألماني أيضا عاش فيما بين 1685 - 1759.

52- موسيقي ألماني، عاش فيما بين 1732 - 1809. كتب كثيرا من الألحان الآلية واستخدام (البيانو) كآلة رئيسية في كثير منها.

53- الجمع الصوتي الأول، 340.

54- بتاريخ 7 أغسطس 1958 نقلا عن لبيب السعيد. الجمع الصوتي الأول 342.

في تلحين القرآن، خطابا يقول فيه إن الوزارة تبارك المشروع، وإنها مستعدة لدفع تكاليف تكوين فرقة موسيقية لتسجيل السور التي تم تلحينها، وعرضها على هيئة كبار العلماء، ثم تقديمها للإذاعة.

وقد أتم صالح أمين تلحين خمس سور، هي: المدثر، والإنسان، والنور، والفرقان، والأنفال، ويقوم الآن بكتابة (نوتها) الموسيقية، وسيسبق كل سورة مقدمة موسيقية تصور المناسبة التي نزلت فيها السورة».

ومع أن وزارة التربية والتعليم نفت عاجلا في بلاغ رسمي[55] مباركتها للمشروع، وإسهامها فيه، وحرصها على أن يكون للدين كيانه، وللقرآن المجيد قداسته، فإن نفيها وقف عندما يخصها هي، ولم يتجاوزه إلى الأمور الخطيرة الأخرى التي تضمنها الخبر.

ثالثاً: ما نشرته صحيفة الأخبار[56] من أن الموسيقار زكرياء أحمد سيقوم بمحاولة فنية جديدة، (لتلحين القرآن). وأن فكرته هي: تصوير المعاني وضبط الأنغام في الترتيل[57].

والحق أن قراءة القرآن -على الآلات الموسيقية- تمسّ قداسته، وتخلط بصوته القدسي أصوات المعازف، وقد تَصْرِف السامع عن تدبر المعاني والتأثر بها، إلى الاستمتاع بالموسيقى وأنغامها، وإيقاعاتها، وقد تقحم -في القرآن- حركات، وتنزع منه حركات، فمثلا: قد تمدّ المقصور، وقد تقصر الممدود، بل قد تحدث ما لا أصل له، وهذا يفضي غالبا إلى تغيير المعاني، أو -على الأقل- وقوع اللبس فيها، ومثل هذا حقيق من الناحية الدينية أن يفسّق صاحبه، ويؤثم سامعه.

والحقيقة أن صناعة الغناء مباينة للقرآن بكل وجه، ومن ثم لا يمكن اجتماع التلحين والأداء المعتبر في القرآن. ويرى ابن خلدون (ت808هـ) الأخذ بالتلحين البسيط الذي يهتدي إليه صاحب المضمار، فيردد أصواته ترديدا على نسب يدركها العالم بالغناء وغيره[58]. ويرى أن: القرآن محل خشوع يذكّر بالموت وما بعده، وليس مقام التذاذ

55- نشرته صحيفة الأهرام في عددها الصادر بتاريخ 13 أغسطس 1958.

56- الأخبار عدد 12 أكتوبر 1959، نقلا عن المصدر السابق.

57- لكن القدر لم يمهل زكرياء أحمد طويلا، حيث لقي ربه بعد ذلك بفترة قليلة.

58- المقدمة: فصل في صناعة الغناء 968/2.

بإدراك الحسن من الأصوات[59].

ولعل هذا ما حدى ببعض العلماء أن يجعل القراءة من غير تلحين مقابل القراءة بتحسين الصوت. فابن قدامة (ت620هـ) لا يرى بأسا بقراءة القرآن من غير تحسين، ويقول: «وإذا حسن صوته فهو أفضل، فإن النبي ﷺ قال: زينوا أصواتكم بالقرآن»[60].

والذي يتحصل من الأدلة أن حسن الصوت بالقرآن مطلوب، فإن لم يكن حسنا فليحسنه ما استطاع كما قال ابن أبي مليكة: أحد رواة الحديث، وقد أخرج ذلك عنه أبو داود بإسناد صحيح.

ومن جملة تحسينه أن يراعي فيه قوانين النغم فإن الصوت يزداد حسنا بذلك، وإن خرج عنها أثر ذلك في حسنه، وغَيْر الحسن ربما انجبر، بمراعاتها ما لم يخرج عن شرط الأداء المعتبر عند أهل القراءات، فإن خرج عنها لم يف تحسين الصوت بقبح الأداء[61].

ولعل هذا مسند من كره القراءة بالأنغام لأن الغالب على من راعى الأنغام أن لا يراعي الأداء -قواعد التجويد- فإن وجد من يراعيهما معا فلا شك في أنه أرجح من غيره، لأنه يأتي بالمطلوب من تحسين الصوت، ويجتنب الممنوع من حرمة الأداء.

وقد تأول بعضهم حديث: «ما أذن الله لشيء ما أذن لنبي أن يتغنى بالقرآن»[62] بمعنى الاستئذان. قال أبو عبيد (ت224هـ) هذا الحديث يرويه بعضهم (كإذنه) بكسر الهمزة، يذهب به إلى الإذن، بمعنى الاستئذان، وليس لهذا وجه عندي، وكيف يكون إذنه له فيه من توحيده وطاعته أكثر وأعظم من الإذن في قراءة يجهر بها؟[63].

اختلاف الفقهاء في حكم التغني بالقرآن

تعددت أقوال الفقهاء حول حكم (التغني بالقرآن) فمنهم من منع التغني مطلقا، ومنهم من أجازه بتوسع، حتى أن البعض حمل ذلك على الغناء فاستباحه، وفيما يلي موجز لأهمها:

59- المقدمة: فصل في صناعة الغناء 968/2.
60- المغني لابن قدامة 179/9. والحديث سبق تخريجه
61- فتح الباري بشرح صحيح البخاري، 89/9.
62- رواه مسلم في صحيحه 545/2.
63- غريب الحديث، 170/2.

أولاً: المجيزون

يروى أن أبا حنيفة (ت150هـ) أجاز القراءة بالألحان[64]. ووافقه الإمام الشافعي (ت204هـ) في إحدى روايتيه[65]. واستدلوا على رأيهم هذا بأحاديث رويت عن رسول الله ﷺ تدل على التغني بالقرآن الكريم، من طرق مختلفة، وفيما يلي جانب من تلك الأحاديث:

1. حديث البراء بن عازب (ت71هـ) قال: قال رسول الله ﷺ «زينوا القرآن بأصواتكم»[66]. ومعنى الحديث حسنوا أصواتكم عند قراءتكم للقرآن، فإن الصوت الحسن يزيد القراءة حسنا، كما قال ابن الجزري في مقدمته[67]:

وهو أيضا حلية التلاوة وزينة الأداء والقراءة

وهو ما يوافق رواية الحاكم -لهذا الحديث- في المستدرك، «... فإن الصوت الحسن يزيد القرآن حسنا»[68]. ورواه الدارمي بلفظ «حسنوا القرآن بأصواتكم فإن الصوت الحسن يزيد القرآن حسنا»[69]. ووجه الاستدلال بالحديث أن الرسول ﷺ أمر بتحسين الصوت عند القراءة وحث على الترنم بالقرآن، لكونه أوقع في القلوب، وأشد تأثيرا على النفوس، وأدق فهما لدى السامعين، وأدعى إلى الاستماع والإصغاء، حتى قيل إذا لم يكن القارئ حسن الصوت بطبعه، فليحسنه ما استطاع، وهو ما أفاده حديث ابن أبي مليكة.

ومعنى ذلك أنه يجوز للقارئ أن يستعين بما تيسر له من الوسائل لتحسين صوته، حتى ولو أدى ذلك أن يتعلم من قانون النغم ما يختاره من الألحان المناسبة للتغني بقراءة القرآن.

64- زاد المعاد2 10/ وينظر: فتح الباري 89/9.

65- البغوي: شرح السنة 487/4. زاد المعاد 10/2. فتح الباري 89/9.

66- أخرجه أبو داود في كتاب الصلاة حديث رقم 1468 باب استحباب الترتيل في القراءة، وابن ماجة في كتاب إقامة الصلاة حديث رقم 1342 باب في حسن الصوت بالقراءة.

67- المقدمة الجزرية لابن الجزري ص 19.

68- المستدرك على الصحيحين 575/1.

69- سنن الدارمي 347/2 باب التغني بالقرآن.

وقد نصوا على أن المحرم لابد أن يشتمل على مفسدة راجحة، أو خالصة، وقراءة التطريب والألحان لا تتضمن شيئا من ذلك، فإنها لا تخرج الكلام عن وضعه، ولا تحول بين السامع وبين فهمه[70].

ويقولون: إنه لابد للنفس من طرب، واشتياق إلى الغناء فعوضت عن طرب الغناء بطرب القرآن، كما عوضت عن كل محرم ومكروه بما هو خير لها منه[71].

مناقشة الدليل

استدلالهم بهذا الحديث، استدلال للفريق الآخر، إذ ليس فيه إباحة القراءة بمطلق الألحان، وإنما يحمل الأمر بتحسين الصوت عند القراءة، ومن المعلوم أن تحسين الصوت بالقرآن على وجه الإجمال لا نزاع فيه بين الفقهاء[72].

لكن الاختلاف بينهم في الاستعانة بالألحان وقانونها في تحسين الصوت، والقدر الزائد على الأحكام المقررة في تجويد القرآن، وهو ما يسمى بـ(التمطيط)، والذي يعتبر نوعا من أنواع الألحان، فالقارئ عندما يمطط الحروف، ويفرط في المد، ويشبع الحركات حتى تصير حروفا، كأن يشبع الفتحة حتى تكون ألفا، أو ألفات، والضمة واوا، أو واوات، والكسرة ياء، أو ياءات، أو ينقص الحروف فيدمج بعضها ببعض، وذلك حسب النغمات، والطبوع، والطبقات الصوتية، التي تتناسب مع اللحن. وما احتجوا به ليس على ظاهره، وهو محل نزاع، إذ يجوز أن يكون من باب المقلوب، أي زينوا أصواتكم بالقرآن.

قال الخطابي (ت388هـ): وكذا فسره غير واحد من أئمة الحديث، قالوا: وهو من باب المقلوب، كما تقول: عرضت الحوض على الناقة، وإنما تعرض الناقة على الحوض[73].

قال القرطبي (ت671هـ): ومعاذ الله أن يتأول عن رسول الله ﷺ، أن يقول: إن القرآن يزين بالأصوات أو بغيرها، ومن تأول هذا فقد واقع أمرا عظيما، وهو أن يحتاج

70- زاد المعاد 10/2.

71- ابن القيم: المرجع السابق 10/2.

72- راجع التبيان: للنووي 54.

73- الوجيز في فضائل الكتاب العزيز للقرطبي، ص: 54. دار الحديث. القاهرة.

القرآن إلى من يزينه، وهو النور والضياء، والزين الأعلى لمن ألبس بهجته، واستنار بضيائه[74].

وقد نقل القاسم بن سلام (ت224هـ) النهي عن التحدث بهذا الحديث، وقال: وإنما كره أيوب فيما نرى أن يتأول الناس بهذا الحديث الرخصة عن رسول الله ﷺ في الألحان المبتدعة، فلهذا نهاه أن يحدث به.

أما فيما يتعلق بما نقل عن الشافعي حين قال: في موضع أكره القراءة بالألحان، وفي موضع آخر قال لا أكرهها، فهذا ليس من باب الخلاف، وإنما هو من باب اختلاف حالين، فحيث كرهها أراد إذا مطط، وأخرج الكلام عن موضعه بزيادة أو نقص، أو مد غير ممدود، أو إدغام ما لا يجوز إدغامه، ونحو ذلك. وحيث أباحها أراد إذا لم يكن فيها تغيير لموضع الكلام.

2. حديث أبي هريرة: «ليس منا من لم يتغن بالقرآن»[75]. وقد أجمع الأئمة على أن الخروج بالتلاوة عن أحكامها المقررة إلى حد التمطيط، والغناء الموسيقى، محرم شرعا، بل إن هناك من الأئمة من منع تحسين الصوت بالقراءة، خشية أن يبلغ هذا الحد، فكان ذلك إجماعا منهم على حرمة التطريب الفاحش في القراءة، فضلا عن تلحينها تلحينا موسيقيا كالأغاني المعروفة.

3. ثناء الرسول ﷺ على بعض القراء من أصحابه ذوي الأصوات الحسنة، وأصحاب الترنم بالقرآن، حيث أقرهم على تلك الحال، وأثنى على صنيعهم. منهم أبو موسى الأشعري عبد الله بن قيس (ت44هـ) فعن أبي يعلى: أن النبي ﷺ مر بأبي موسى وهو يقرأ في بيته، فوقف يستمع لقراءته، ثم مضى، فلما أصبح لقي أبو موسى رسول الله ﷺ فقال: «يا أبا موسى مررت بك البارحة، لو رأيتني وأنا أستمع لقراءتك، لقد أوتيت مزماراً من مزامير آل داود». فقال أبو موسى: «لو علمت أنك تسمعه يا رسول الله، لحبرته لك تحبيرا»[76].

74- المرجع السابق، ص: 55.

75- رواه البخاري في فضائل القرآن 107/6 ورواه في كتاب التوحيد باب قوله تعالى: ﴿وَأَسِرُّواْ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُواْ بِهِۦٓ﴾ [الملك: 13] 309/8، ورواه البيهقي في شعب الإيمان 101/5. وأبو داود في سننه كتاب الصلاة باب استحباب الترتيل في القراءة 74/2. والدرامي في سننه كتاب فضائل القرآن، 249/1.

76- أخرجه مسلم في صلاة المسافرين 546/1. والبيهقي في شعب الإيمان 541/5. والإمام أحمد في =

ووجه الاستدلال بهذا الحديث أن الرسول ﷺ شبه حسن صوت هذا الصحابي، وحلاوة نغمته، بصوت المزمار. كما أقره على مقولته: (لحبرته لك تحبيرا) والتحبير معناه التزيين، والتحسين، وهو وصف زائد عن أصل القراءة، فدل على جواز تزيين الصوت، وتلحينه، ليؤثر على سامعيه.

مناقشة الدليل

نعم، لقد أكرم الله ﷻ أبا موسى، فأتاه صوتا جميلا، شجيا نديا، فقرأ به القرآن العظيم، وتغنى به، وسمعه رسول الله ﷺ فامتدحه بقوله: «لقد أوتيت مزمارا من مزامير آل داود»[77]. ونبي الله داود كان إليه المنتهى في حسن الصوت بالقراءة، فقد آتاه الله صوتا جميلا حسنا، يداعب النفوس، والجمادات، بل والطير، بحيث إنه كان إذا قرأ الزبور رددت الجبال معه والطير تسبيحه، قال تعالى: ﴿وَسَخَّرْنَا دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ [الأنبياء: 79].

ويشير قول الرسول ﷺ إلى أبي موسى: «لقد أوتيت مزمارا من مزامير آل داود» على أن أبا موسى قد أوتي جزءا من جمال صوت نبي الله داود عليه السلام، فكل من سمعه، شدته حلاوته، وأطربته نداوته وعذوبته.

ولكن لا ريب أن امتداح النبي ﷺ لصوت أبي موسى، وتلاوته، لا يتصور إلا إذا كان قد اجتمع في التلاوة مع حسن الصوت كمال الأداء، وإتقانه، وإلا فإن الإخلال به – مهما حسن الصوت– منكر لا يرضى الله، ولا رسوله، يأثم فاعله، وينهى عنه.

حكى الماوردي (ت450هـ) عن الشافعي (ت204هـ) قوله: القراءة بالألحان إذا انتهت إلى إخراج بعض الألفاظ من مخارجها حرام. ونقل النووي (ت677هـ) عن الشافعي قوله: المكروه من التطريب أن يفرط القارئ في التمطيط الذي يشوش نظم القرآن، وأن إباحة تحسين الصوت بالقراءة مشروطة بألا يخرج القارئ عن شرط الأداء

=

مسنده 350/5. وابن كثير في فضائل القرآن 35. وأبي يعلى في مسنده 266/13. والترمذي في سننه 515/5.

77– الحديث متفق عليه، واللفظ للبخاري، وقد سبق تخريجه، وفي هذا الحديث منقبة لأبي موسى الأشعري رضي الله عنه، وفيه جواز مدح الإنسان في وجهه إذا لم يخش من ذلك مفسدة بحصول العجب للممدوح.

المعتبر عند أهل القراءات، فإن خرج عنه لم يغنه تحسين الصوت بقبح الأداء[78].

4. وما قيل في توجيه الأحاديث السابقة، يقال في حديث أبي هريرة، الذي روى فيه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «ما أذن الله لشيء إذنه لنبي حسن الصوت يتغنى بالقرآن»[79]. وحديث عبد الله بن مغفل، الذي روى فيه أن النبي ﷺ قرأ عام الفتح في مسير له سورة الفتح، على راحلة فرجع في قراءته. قال معاوية بن قرة: راوي الحديث عن عبد الله لولا أني أخاف أن يجتمع عليّ الناس لحكيت لكم قراءته[80].

ثانياً: المانعون

تفيد المصادر أن من الفقهاء من حرم قراءة القرآن بالألحان، منهم: مالك بن أنس (ت179هـ)[81] وأحمد بن حنبل (ت241هـ)[82]. ورواية في مذهب الإمام الشافعي (ت204هـ)[83]. واستدلوا بأدلة منها:

1. حديث حذيفة بن اليمان، أن رسول الله ﷺ قال: «اقرأوا القرآن بلحون العرب وأصواتها وإياكم، ولحون أهل الفسق، ولحون أهل الكتابين، وسيجيء بعدي أقوام يرجعون بالقرآن ترجيع الغناء والنوح، لا يجاوز حناجرهم، مفتونة قلوبهم وقلوب الذين يعجبهم شأنهم»[84].

ووجه الاستدلال أن الحديث فيه دلالة قاطعة على تحريم القراءة بكافة الألحان، كما أنه يحمل أمرا ونهيا. أمر بالقراءة بالألحان والأصوات العربية السليقة. ونهي عن القراءة بألحان الفسق، والأصوات الأعجمية، وإيقاعات التراتيل الكنائسية، وألحان أهل النياحة. لذلك لا تجوز قراءة القرآن بالألحان والأصوات المنغمة، والطبقات الصوتية المترنمة.

78- النووي التبيان في آداب حملة القرآن 55.

79- أخرجه البخاري في كتاب التوحيد، ومسلم في صلاة المسافرين، باب تحسين الصوت بالقراءة 545/1.

80- أخرجه البخاري في كتاب فضائل القرآن، باب الترجيح 80/8. ومسلم في كتاب صلاة المسافرين، باب تحسين الصوت بالقراءة 545/1.

81- ابن قيم الجوزية: زاد المعاد 10/2.

82- كتاب العلل ومعرفة الرجال: لأحمد بن حنبل 373/1. وراجع ابن القيم: زاد المعاد 10/2.

83- زاد المعاد لابن القيم الجوزية 10/2.

84- أورده الهيثمي في الزوائد 169/7 وقال رواه الطبراني في الأوسط.

ويمكن مناقشة هذا الدليل من جهتين:

أولاً: الحديث معلول بعلتين

أ. بقية بن الوليد (ت197هـ)[85] مدلس، ولم يصرح بالسماع، بل رواه معنعنا عن حصين ابن مالك الفزاري. قال عنه النسائي: إذا قال: حدثت وأخبرنا فهو ثقة، وإذا قال: عن فلان فلا يؤخذ عنه لأنه لا يدري عمن من أخذه[86]. وقال فيه ابن المبارك: صدوق لكن يكتب عمن أقبل وأدبر. وقالوا فيه: أحاديث بقية ليست نقية[87].

ب. أبو محمد شيخ مجهول، وقد ذكره الهيثمي، ونسبه للطبراني في الأوسط، وقال فيه لم يسمّ، وفيه بقية أيضا[88].

ثانياً:

1. تحسين الصوت قدر المستطاع، بلا تكلف فيه، مع التزام الحدود المرسومة في فن القراءة، أمر لا بأس به، مادام القارئ لا يقرأ بألحان الغناء، كالأغاني الهزلية المعروفة، ولا يترنم به الترنم الكنائسي، ولا يناح به نوح الرهبان.
2. ما ورد عن زياد النميري، أنه جاء مع القراء إلى أنس بن مالك، فقيل له: اقرأ، فرفع صوته وطرب، وكان رفيع الصوت، فكشف أنس عن وجهه، وكان عليه خرقة، فقال: يا هذا! ما هكذا كانوا يفعلون، وكان إذا رأي شيئا يكرهه كشف الخرقة عن وجهه[89].

ووجه الاستدلال أن أنس بن مالك خادم النبي ﷺ أنكر التطريب بالقرآن، وقال للقارئ: «ما هكذا كانوا يفعلون». وهو دليل على أن القراءة في الصدر الأول، لم تكن بالتطريب -كما قرأ زياد- ولو كان التطريب جائزا لما أنكر عليه أنس قراءته.

ويمكن الإجابة عن هذا الدليل أن من آداب تلاوة القرآن الكريم تحسين الصوت بقراءته، وتطييب اللسان بتلاوته، وقد وردت نصوص يفهم منها الحث على الترنم به،

85- راجع ترجمته في ميزان الاعتدال للذهبي 331/1. وتهذيب التهذيب لابن حجر 473/1.
86- تهذيب التهذيب 475/1.
87- المرجع السابق.
88- مجمع الزوائد 169/7.
89- الوجيز في فضائل الكتاب العزيز للقرطبي ص: 49. المدخل لابن الحاج 74/1. زاد المعاد 14/2.

والتغني في قراءته، شريطة أن تسير القراءة حسب قواعد التجويد المتبعة، أما إذا تعدى هذا الحد، وخرج عنه إلى طريقة الغنى، فإن القراءة -على هذه الصفة- محظورة بإجماع العلماء.

يقول ابن العربي (ت543هـ): «واستحسن كثير من فقهاء الأمصار القراءة بالألحان، والترجيع، وكرهه مالك، وهو جائز، لقول أبي موسى للنبي ﷺ: (لو علمت أنك تسمع لحبرته لك تحبيرا) يريد لجعلته لك أنواعا حسانا»[90]. ويقول القسطلاني (ت932هـ): «ولا ريب أنه يستحب تحسين الصوت بالقراءة، لكونه أوقع في القلب، وأشد تأثيرا، وأدق لسامعه، فإن لم يكن القارئ حسن الصوت فليحسنه ما استطاع، ومن تحسينه أن يراعى فيه قوانين النغم، فإن الصوت الحسن يزداد حسنا بذلك. وهذا إذا لم يخرج عن التجويد المعتبر عند أهل القراءات»[91].

3. ما رواه القرطبي (ت671هـ) عن القاسم بن محمد (ت118هـ)، أن رجلا قرأ في مسجد النبي ﷺ فطرّب، فأنكر ذلك القاسم، وقال: يقول الله ﷻ: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: 42][92]. ووجه الاستدلال أن القاسم استشهد بالآية، وفي استشهاده ما يدل على أنه يرى أن التطريب في القراءة من الباطل الذي يجب أن ينزه القرآن عنه.

مناقشة الدليل

الذي يبدو أن هذا القارئ أحدث في كلام الله تعالى من الألحان، والتطريب، والطبوع المستعملة في الغناء الغزلي ما جعل القاسم ينكر عليه تطريبه. ولو كان التطريب والتغني مما اقتضته طبيعة القارئ، وسمحت به، من غير تكلف، لما أنكر ذلك القاسم، لأنه يعلم أن الرسول ﷺ، وجه أصحابه لتحسين أصواتهم، في قراءة القرآن الكريم.

وشجع من كان صوته حسنا، فقد استمع ﷺ ذات ليلة إلى عبد الله بن مسعود (ت32هـ) وهو يقرأ، ومعه أبو بكر، وعمر، فوقفوا طويلا، ثم قال: «من أحب أن يقرأ

90- القرطبي: أحكام القرآن، ن 11/1. زاد المعاد 15/2.

91- إرشاد الساري 481/7.

92- الوجيز في فضائل الكتاب العزيز للقرطبي، ص: 50.

القرآن غضا كما أنزل، فليقرأ على قراءة ابن أم عبد»[93].

4. ما روى من أن عبد الله بن أحمد بن حنبل (ت290هـ)[94] سأل أباه عن القراءة بالألحان، فكرهها، وقال: لا، إلا أن يكون طبع الرجل، مثل قراءة أبي موسى حذرا. وسئل مرة: ما تقول في القراءة بالألحان؟ فقال للسائل: ما اسمك؟ فقال اسمي محمد؟ فقال أيسرك أن يقال لك: يا موحمد؟ ممدودا[95].

ووجه الاستدلال من هذا أن الإمام أحمد أنكر التطريب بشتى أنواع الألحان، وعلى مختلف الإيقاعات، والأوزان.

مناقشة الدليل

الظاهر -والله أعلم- أن مراد الإمام أحمد، ومن ذهب مذهبه، في التشديد في هذه المسألة، كان لمنع الزائد الذي يخرج القراءة عن حدها، وليس منع التنغيم مطلقا، فهو من باب اختلاف حالين، وليس من باب اختلاف قولين. يشهد لذلك قوله: «ياموحمد ممدودا»، فقد زاد في حروف الكلمة، وهذا محرم بالاتفاق.

وعليه فمن طرب بما لا يليق بمقام القرآن من ألحان الغناء، فأخل بشروط الأداء، فإن القراءة -على هذه الصفة- محظورة بإجماع القراء.

5. من العلماء من يكره قراءة بعض القراء المعروفين، كحمزة الزيات (ت156هـ) لما فيها من التشديد والتمطيط. يقول ابن قتيبة (ت270هـ): وكذلك لحن اللاحنين من القراء المتأخرين، لا يجعل حجة على الكتاب وقد كان الناس قديما يقرأون بلغاتهم، ثم خلف قوم من بعد قوم من أهل الأمصار، وأبناء العجم، ليس لهم طبع اللغة، ولا علم التكلف، فهفوا في كثير من الحروف، وزلوا، وقرأوا بالشاذ، وأخلوا، منهم رجل ستر الله عليه عند العوام بالصلاح، وقربه من القلوب بالدين، لم أر فيمن تتبعت وجوه قراءاته أكثر تخليطا، ولا أشد اضطرابا منه.

وكان ابن عيينة (ت198هـ) يرى لمن قرأ في صلاته بحرفه، أو ائتم بقراءته أن

93- مسند الإمام أحمد 265/1 حديث رقم 265. سنن ابن ماجة 49/1.

94- راجع ترجمته في طبقات الحنابلة 180/1. تاريخ بغداد 375/9. شذرات الذهب 203/1، وتذكرة الحفاظ 265/2.

95- كتاب العلل ومعرفة الرجال: لأحمد بن حنبل 373/1. ابن القيم: زاد المعاد 10/2.

يعيد، ووافقه على ذلك كثير من خيار المسلمين، منهم: بشر بن الحارث، وأحمد بن حنبل. وقد شغف بقراءته عوام الناس، وسوقهم، وليس ذلك إلا لما يرونه من مشقتها وصعوبتها، وطول اختلاف المتعلم إلى المقرئ فيها[96].

ووجه الاستدلال أن هؤلاء (الأعلام) كرهوا قراءة حمزة بن حبيب الزيات -أحد القراء السبعة- لما فيها من المد المفرط، والسكت، وتغيير الهمز في الوقف، والإمالة، والإدغام ... وهو ما عدوه من قبيل التغني والتلحين، إلى درجة أن ابن عيينة، وبشر بن الحارث، وأحمد بن حنبل، أفتوا بإعادة الصلاة لمن قرأ في صلاته بحرفه، أو ائتم بقراءته.

مناقشة الدليل

كان الإمام حمزة -كغيره من القراء- متمسكا بالأثر، تتصل قراءته بابن عباس، الذي قرأ على أبي بن كعب، وعلى رسول الله ﷺ، وقرأ أبي على رسول ﷺ، فهو لم يقرأ حرفا إلا بأثر[97]. وما نسب إليه فهو منه براء، أليس هو القائل لأحد طلابه عندما أمد طويلا: لا تفعل؟ أما علمت أن ما كان فوق الجعودة فهو قطط، وما كان فوق البياض فهو برص، وما كان فوق القراءة فليس بقراءة[98].

ثم إن التواتر -في قراءته- شامل للأصول والفرش، هذا هو الذي عليه المحققون[99]. وقال ابن مجاهد (ت224هـ): حين سئل عن وقف حمزة على الساكن قبل الهمزة، والإفراط في المدّ، «كان يأخذ بذلك المتعلم»[100]. ومراده أن يصل المتعلم إلى ما نحن عليه من إعطاء الحروف حقها.

وإجمالا فإن كل إمام قرأ بما نقله عن مشايخه[101] من مد، أو قصر، أو همز، أو تشديد، أو تخفيف، أو إمالة، أو فتح، أو إشباع، أو اختلاس ... وغيره.

96- ابن قتيبة: تأويل مشكل القرآن ص 58 - 60.

97- ابن الجزري: غاية النهاية 263/1 ينظر ذلك في ترجمة حمزة 1190.

98- السخاوي: جمال القراء 336/2. وابن مجاهد: السبعة في القراءات 76. وابن الجزري النشر 205/1، والذهبي معرفة القراء الكبار 115/1.

99- القسطلاني: لطائف الإشارات 78/1.

100- ابن مجاهد: السبعة في القراءات 74؛ السخاوي جمال القراء 336/2.

101- ابن الجزري: التمهيد 57.

وبعد عرض ومناقشة النصوص السابقة، وفي ضوء كل ما تقدم، يمكن أن نعتبر التطريب والتغني على وجهين:

أحدهما: التغني المحمود

وهو ما اقتضته الطبيعة، وسمحت به، في نطاق الحدود الدقيقة، المرسومة في (أحكام التلاوة) المستنبطة من القراءة المأثورة عن النبي ﷺ وعمن رواها عنه من الصحابة، وعنهم من التابعين، من غير تقعر في الصوت، ولا تكلف في الأداء، ولا إفراط في المد، ولا إشباع في الحركات، حتى يتولد من الفتحة ألف، ومن الضمة واو، ومن الكسرة ياء وهذا الوجه مقروء به، غير محرم ولا مكروه.

الثاني: التغني المذموم

وهو ما كان من ذلك صناعة، بحيث لا يحصل إلا بتكلف وتصنع، واستعانة بألحان الموسيقي، المحدثة، وقانونها في تحسين الصوت، طبقا لأنواع الألحان، وعلى إيقاعات مخصوصة، الأمر الذي يجعل لفظ القرآن يخرج عن صيغته بإدخال حركات فيه، أو إخراج حركات منه، أو تمطيط يخفى به بعض اللفظ، أو يلتبس معه المعنى. وهذا الوجه محرم، يفسق به القارئ، ويأثم به السامع. وفي نظري هذا هو التغني الذي كرهه العلماء، وذموه، وأنكروا على من قرأ به.

وبعد هذا التفصيل أرى أنه قد زال اللبس، وظهر الحق بوضوح، وهذا الذي أختاره ونرى أنه الصواب، وهو قول وسط بين طرفين، بين من يشدد في هذه المسألة، ويغلق بابها بالكلية، وبين من يترخص فيها، ويتوسع بدون ضوابط.